لجنة التأليف والترجمة والنشر

كتاب الإمتاع والمؤانسة

تأليف

أبى حيان التوحيدى

وهو مجموع مسامرات فى فنون شتى
حاضر بها الوزير أبا عبد الله العارض فى عدة ليال

الجزء الأول

صححه وضبطه وشرح غريبه

أحمد أمين و أحمد الزين

منشورات
المكتبة العصرية - بيروت - صيدا

مقدمة

كتاب الامتاع والمؤانسة

بقلم : أحمد أمين

أبو حيان التوحيدى من أولئك العلماء الأدباء ، الذين أصيبوا فى حياتهم بالبؤس والشقاء ، وظل حياته يجاهد ويكافح فى التأليف واحتراف الوراقة والنسخ وجوب الأقطار ، يقصد الأمراء والوزراء لعلهم يكافئون علمه وأدبه ، فلم يحظ من كل ذلك بطائل ، وعاش كما يقول فى بعض كتبه على نحو أربعين درهما فى الشهر أى ما يساوى جنيهاً واحداً — مع أنه كما يقول — رأى كل من حوله من العلماء والشعراء يحظون من الأمراء بالمال الكثير والحظ الوافر ، وليس أكثرهم يدانيه علماً أو يجاريه أدبا . قصد ابن العميد وابن عباد وابن شاهويه وابن سعدان وأبا الوفاء المهندس وغيرهم ، ومدح وأطرى ، و بكى واشتكى ، وهدد وأوعد ، فما نفعه مدحه ولا ذمه ، ولا إطراؤه ولا هجاؤه ، فإن استفاد شيء مما عاناه أبو حيان فإنما هو الأدبُ بما كتب وألّف ، و بما هجا واستعطف .

ولم يكن حظه بعد وفاته بأحسن من حظه فى حياته ، فقد عجب ياقوت من أن مؤرخى الرجال لم يترجموا له ، مع أنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ، ولم نعثر فيما بين أيدينا من الكتب على ترجمة وافية لحياته إلا نتفاً قصيرة وأخباراً ضئيلة .

وأراد هو أن ينتقم من الناس الذين كفروا صنيعه ، وجحدوا علمه وأدبه ، فأحرق فى آخر أيامه كتبه ، وقال : « إنى جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة

منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولمد الجاه عندهم ، فحرِمْتُ ذلك كله... ولقد اضطررت بينهم بعد العشرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح فى قلب صاحبه الألم » .

قال السيوطى : « ولعل النسخ الموجودة الآن من تصانيفه كتبت عنه فى حياته وخرجت من قبل حرقها » .

وكان من شؤمه أنه لم يبق من كتبه التى ألفها — وتبلغ نحو العشرين — إلا القليل ، ولم يطبع منها إلا المقابسات والصداقة والصديق ، ورسالة فى العلوم ، وما بقى منها مخطوطاً ، بل وما طبع منها مملوء بالتحريف والتصحيف إلى حد يقلل من قيمتها والانتفاع بها .

ولعل أقوم كتبه وأنفعها وأمتعها كتابه الذى نحن بصدده وهو « كتاب الإمتاع والمؤانسة » .

فهو كتاب ضخم يقع فى ثلاثة أجزاء أخذنا أنفسنا بنشره لتعميم نفعه .

ولتأليف أبى حيان لهذا الكتاب قصة ممتعة ، ذلك أن أبا الوفاء المهندس كان صديقاً لأبى حيان وللوزير أبى عبد الله العارض ، فقرب أبو الوفاء أبا حيان من الوزير ، ووصله به ، ومدحه عنده ، حتى جعل الوزيرُ أبا حيان من سُمّاره ؛ فسامره سبعا وثلاثين ليلة كان يحادثه فيها ، ويطرح الوزير عليه أسئلة فى مسائل مختلفة فيجيب عنها أبو حيان .

ثم طلب أبو الوفاء من أبى حيان أن يقص عليه كل ما دار بينه وبين لوزير من حديث ، وذكّره بنعمته عليه فى وصله بالوزير ، مع أنه «أى أبا حيان»

ليس أهلا لمصاحبة الوزراء لقبح هيئته وسوء عادته وقلة مرانته وحقارة لبسته ، وهدده إن هو لم يفعل أن يغض عنه ، ويستوحش منه ، ويوقع به عقوبته ، وينزل الأذى به .

فأجاب أبو حيان طلب أبي الوفاء ، ونزل على حكمه ، وفضّل أن يدون ذلك فى كتاب يشتمل على كل ما دار بينه وبين الوزير من دقيق وجليل وحلو ومر ، فوافق أبو الوفاء على ذلك ، ونصحه أن يتوخى الحق فى تضاعيفه وأثنائه ، والصدق فى إيراده ، وأن يطنب فيما يستوجب الإطناب ، ويصرح فى موضع التصريح .

« فكان من ذلك كتاب الإمتاع والمؤانسة »

من هو الوزير أبو عبد الله العارض الذى سامره أبو حيان ؟

لقد بحثت عنه فى مظانه فلم أوفق إلى العثور عليه ، وقبل ذلك عُنِيَ المرحوم أحمد زكى باشا بالبحث والسؤال عنه من بعض علماء الشرق والغرب فكان حظه حظى .

وأخيراً رجحت أنه هو الوزير أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان وزير صمصام الدولة البويهى ، وقد ورد اسمه هكذا فى كل ما راجعت من كتب التاريخ أمثال : (تجارب الأمم) وذيله (وابن الأثير) ، ولم يلقبه أحد منهم (بالعارض) ؛ وكلمة (العارض) كما فى كتاب (الأنساب للسمعانى) معناها : « من يعرف العسكر ويحفظ أرزاقهم ، ويوصلها إليهم ويعرضهم على الملك إذا احتيج إلى ذلك » فالظاهر أن الوزير أبا عبد الله لقّب هذا اللقب إما لأنه تولى هذا العمل قبل أن يتولى الوزارة ، أو كان هذا لقباً لأسرته ؛ ودليلى على ذلك أمور :

(١) أنه ورد فى صدر هذا الكتاب أن أبا الوفاء ذكر لأبى حيان :

أنك لما انكفأت من الرَّى إلى بغداد فى آخر سنة ٣٧٠ مغيظاً من ابن عباد ، وعدتك صلاح حالك ، وأن أوصلك إلى الأستاذ أبى عبد الله العارض ، ثم جاء وصف أبى عبد الله هذا بالوزير .

ونحن إذا رجعنا إلى من استوزر فيما بين سنة ٣٧٠ وسنة ٣٧٥ لم نجد وزيراً يكنى بأبى عبد الله إلا الوزير أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان ، فقد استوزره صمصام الدولة سنة ٣٧٣ وقتله سنة ٣٧٥ .

(٢) جاء فى أثناء كتاب « الإمتاع والمؤانسة » أن أبا حيان قص على الوزير أنه سمع رجلا على جسر بغداد يقول وقد رأى ابن بقية الوزير المشهور مصلوباً بعد أن مات عضد الدولة : « سبحان الله ! عضد الدولة تحت الأرض وابن بقية فوق الأرض » ، فلما سمع الوزير ذلك قال : استأذنت الملك فى دفن ابن بقية فدفن .

وقد ذكر المؤرخون أن ابن بقية دفن فى عهد صمصام الدولة ؛ ولم يكن لصمصام الدولة وزير يكنى بأبى عبد الله غير ابن سعدان .

(٣) ومما يستأنس به أن أبا حيان كان متصلا بالوزير ابن سعدان وألف له كتاب «الصداقة والصديق» وقد ذكر فى أوائله « أن السبب كان فى إنشاء هذه الرسالة أنى ذكرت شيئاً منها لزيد بن رفاعة أبى الخير ، فنماه إلى ابن سعدان سنة إحدى [وسبعين] وثلاثمائة قبل تحمله أعباء الدولة وتدبيره أمر الوزارة حين كانت الأشغال خفيفة ، والأحوال على أذلالها جارية ، فقال لى ابن سعدان : قد قال لى زيد عنك كذا وكذا . قلت : قد كان ذلك . قال : فدوّن هذا الكلام وصله بصلاته . . . . فجمعت ما فى هذه الرسالة » .

فاتصال أبي حيان بابن سعدان وتأليفه له كتاب «الصداقة والصديق» يرجح الظن بأنه هو أبو عبد الله العارض .

ثم كان من رجال صمصام الدولة من اسمه أبو الحسن بن عمارة العارض استخدمه صمصام الدولة فى السفارة بينه و بين أعدائه أحياناً ، ولكن يبعد أن يكون هو الذى أُلف له كتاب الإمتاع والمؤانسة — لأن كنيته أبو الحسن والذى أُلّف له الكتاب أبو عبد الله — ولأن أبا الحسن لم يكن وزيراً لصمصام الدولة . وفى الكتاب النص فى مواضع متعددة على أنه ألفه لوزير .

(٤) ذكر فى كتاب « الإمتاع والمؤانسة » أصدقاء أبي عبد الله العارض وعدد منهم ابن زرعة وأبا الوفاء المهندس ومسكويه والأهوازى و بهرام وابن شاهويه ، وأنهم كانوا يلازمونه وأنهم أهل مجلسه ، وعدد فى كتاب الصداقة والصديق أصدقاء ابن سعدان فإذا هم هم[1] ؛ فاتحاد الأصدقاء وتوافقهم واجتماعهم فى مجلس وزير يرجح الظن جدا بأن ابن العارض هو ابن سعدان .

(٥) جاء فى « كتاب الإمتاع والمؤانسة » أن الوزير سأل أبا حيان عما يقول الناس فيه . فقال له : « سمعت بباب الطاق قوما يقولون : اجتمع الناس اليوم على الشط ، فلما نزل الوزير ليركب الزبزب صاحوا وضجوا وذكروا غلاء القوت وعوز الطعام وتعذر الكسب وغلبة الفقر ، وأنه أجابهم بجواب مُرّ مع قطوب الوجه و إظهار التبرم » .

وهذه الأوصاف كلها تنطبق على ما ذكره أبو شجاع فى كتابه « ذيل تجارب الأمم » عن حادثة جرت لابن سعدان .

***

(١) انظر الصداقة والصديق ص ٣١

وابن سعدان هذا استوزره صمصام الدولة البويهى سنة ٣٧٣ لما تقلد الأمور بعد وفاة أبيــه عضد الدولة . جاء فى كتاب « ذيل تجارب الأمم لأبى شجاع : « وفيها [أى فى سنة ٣٧٣] خُلع على أبى عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان خِلع الوزارة — وكان رجلا باذلا لعطائه ، مانعا للقائه ، فلا يراه أكثر من يقصده إلا ما بين نزوله من درجة داره إلى زبزبه[1] ؛ ومع ذلك فلا يخيب طالب إحسان منه فى أكثر مطلبه .... فبسط يده فى الإطلاقات والصلات .... وأحدث من الرسوم استيفاء العشر من جميع ما تسبب به الأولياء والـكتّاب والحواشى من أموالهم وأرزاقهم .... وانضاف إلى ضيق خلقه ما اتفق فى وقت نظره من غلاء سعر ، فتطيرت العامة ورجموا زبزبه ، وشغّبوا الديلم عليه ، وهجموا على نهب داره ، وانتهت الحال إلى ركوب صمصام الدولة إلى مجتمعهم حتى تلافاهم وردّهم[2] » .

وقد ظل ابن سعدان فى الوزارة إلى سنة ٣٧٥ حتى ظهر له خصم هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، فظل يكيد له وينصب الشباك للإيقاع به .

وحدث أن ابن سعدان أراد أن يعيّن أباه كاتبا لوالدة صمصام الدولة لما مات كاتبها ، فقال أبو القاسم لصمصام الدولة : « إن ابن سعدان قد استولى على أمورك ، وملك عليك خزائنك وأموالك ، فإذا تم له حصول والده مع السيدة حصلنا تحت الحجر معه[3] » . وتمت المـكيدة ولم يعيّن أبوه . ثم قبض على ابن سعدان وأصحابه وأودعوا السجن ، واستوزر صمصام الدولة هـذا الواشى

---

(١) الزبزب : ضرب من السفن .
(٢) ص ٨٥ .
(٣) ص ١٠٣

أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف ، ولم يكتف أبو القاسم بحبس ابن سعدان فانتهز فرصة خروج ثائر على صمصام الدولة اسمه « أسفار بن كردويه » يريد خلعه ، فدس أبو القاسم إلى صمصام الدولة أن ابن سعدان متصل بهذا الثائر وأن الذى جرى كان من فعله وتدبيره ، وأنه لا يُؤمَن ما يتجدد منه فى محبسه ، فأمر صمصام الدولة بقتله ، فقتل سنة ٣٧٥ .

وكان لابن سعدان ناحية أخرى علمية أدبية يصورها أبو حيان فى كتبه ، فهو واسع الاطلاع ، له مشاركة جيدة فى كثير من فروع العلم من أدب وفلسفة وطبيعة وإلٰهيات وأخلاق ، يدل على ذلك حواره الذى يحكيه أبو حيان فى كتابه الإمتاع والمؤانسة والمقابسات ، فهو يسأل أسئلة عميقة ، وينقد الإجابة عنها نقداً قيما .

وفوق ذلك كان له فى وزارته منتدى يجمع كثيراً من جلة العلماء والأدباء منهم ابن زرعة الفيلسوف النصرانى ، وابن مسكويه صاحب (تهذيب الأخلاق) (وتجارب الأمم) ، وأبو الوفاء المهندس الذى سنتحدث عنه ، وأبو سعد بهرام بن أردشير ، ومن الشعراء ابن حجاج الشاعر الماجن المشهور ، ومن الكتّاب أبو عبيد الخطيب الكاتب ، وأبو حيان صاحبنا .

وكان له مجلس شراب يجلس إليه بعض هؤلاء فيتفاكهون ويتنادرون ويذهبون فى فنون الحديث كل مذهب ، ومجلس جد يتحاورون فيه ويتناقشون فى الفلسفة والأخلاق والأدب .

وكان يباهى بمجلسه ويفخر به على مجالس الأمراء المعاصرين له ، مثل المهلبى وابن العميد والصاحب بن عباد . فيقول فى أصحابه هؤلاء : « ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، ... وأن جميع ندماء المهلبى لا يفون بواحد من

هؤلاء ، وأن جميع أصحاب ابن العميد يشتهون أقل مَن فيهم ، وأن ابن عباد ليس عنده إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ويتصايحون[1] » . فلا عجب — إذن — أن يكون من نتاج ابن سعدان الوزير العالم هذا الكتاب الذى نحن بصدده ؛ كتاب « الإمتاع والمؤانسة » .

***

وأما أبو الوفاء الذى وصل أبا حيان بابن سعدان والذى ألف أبو حيان له كتاب « الإمتاع والمؤانسة » ودوّن له فيه كل ما دار بينه وبين الوزير فى سبع وثلاثين ليلة ، فهو محمد بن محمد بن يحيى البُوزجانى . ترجم له ابن النديم فى (الفهرست) وابن خلكان فى (وفيات الأعيان) ؛ وقال فيه هذا الأخير : « إنه أحد الأئمة المشاهير فى علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها ، وكان شيخنا العلامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس — وهو القيم بهذا الفن — يبالغ فى وصف كتبه ، ويعتمد عليها فى أكثر مطالعاته ويحتج بما يقوله وكان عنده من تآليفه عدة كتب .... وكانت ولادته سنة ٣٢٨ بمدينة بوزجان ، وقدم العراق سنة ٣٤٨ ، وتوفى سنة ٣٧٦ » . وقد ذكر ابن خلكان أنه نقل تاريخ الوفاة هذا من شيخه ابن الأثير . ولكن الذى فى ابن الأثير أنه عدّ وفاته فى حوادث سنة ٣٨٧ ، فإما أن ابن خلكان أخطأ فى النقل أو أن الناسخ أخطأ فى الكتابة .

وكان أبو الوفاء هذا من ندماء ابن سعدان كما تقدم ، وقد وصفه ابن سعدان فى جملة ما وصف من أصحابه . فقال : « وأما أبو الوفاء فهو والله ما يقعد به عن المؤانسة الطيبة والمساعدة المطربة والمفاكهة اللذيذة والمواتاة الشهية ، إلا أن لفظه خراسانى ، وإشارته ناقصة ، هذا مع ما استفاده بمقامه الطويل ببغداد ، والبغدادى

(١) انظر رسالة الصداقة والصديق ص ٣٣

إذا تخرسن كان أعلى وأظرف من الخراسانى إذا تبغدد[1] » .

***

إلى هنا رأينا أن الكتاب ألّف لأبى الوفاء المهندس ، نقل فيه أبو حيان ما دار بينه و بين ابن سعدان . ولكن القفطى فى كتابه « أخبار الحكماء » عند ترجمته لأبى سليمان المنطقى أورد كلاما يناقض ما نقول ، سواء فى ذلك من ألف له الكتاب ، ومن دار الحديث بينه و بين أبى حيان .

فقد ذكر : « أن أبا سليمان كان أعور ، وكان به وَضَح ، وكان ذلك سبب انقطاعه عن الناس ولزومه منزله ، فلا يأتيه إلا مستفيد وطالب علم ، وكان يشتهى الاطلاع على أخبار الدولة وعلم ما يحدث فيها . . . . . وكان أبو حيان التوحيدى من بعض أصحابه المتصمين به ، وكان يغشى مجالس الرؤساء و يطلع على الأخبار ، ومهما عَلِمه من ذلك نقله إليه وحاضره به ، ولأجله صنف كتاب « الإمتاع والمؤانسة » نقل له فيه ما كان يدور فى مجلس أبى الفضل عبد الله بن العارض الشيرازى عند ما تولى وزارة صمصام الدولة بن عضد الدولة[2] » . وأنا أرجح خطأ القفطى فى الوجهين معاً .

فأما فى الأول : فإن النسخة التى بيدى تذكر أنه ألفه لأبى الوفاء المهندس لا لأبى سليمان المنطقى . و يقول فى صدر الكتاب : إنه ألفه ردا لجميل أبى الوفاء إذ كان هو الذى أوصله لأبى عبد الله . وعندما يأتى ذكر أبى الوفاء فى ثنايا الكتاب ، و يسأل أبو عبد الله أبا حيان عن رأيه فيه يمدحه و يثنى عليه ، و يقول : كيف أذمه وهو الذى أوصلنى بك ، وقد سبق أن أثبتنا أن أبا الوفاء كان من ندماء أبى عبد الله .

(١) الصداقة والصديق ٣٢ .
(٢) أخبار الحكماء ص ٢٨٣ .

ودليل آخر ، وهو أن أبا حيان فى بعض كلامه فى الكتاب يستجدى من ألّف له الكتاب ، وقد كان أبو الوفاء المهندس فى منزلة تسمح له بذلك ، فإنه رجل جليل القدر يلقبه الوزير بشيخنا . أما أبو سليمان فكان فقيراً كما ذكر ذلك أبو حيان فى هذا الكتاب ، وكانت صلة أبى حيان به صلة علمية لا صلة مالية ، فمن البعيد جدا أن يستجديه أبو حيان .

ودليل ثالث : وهو أن الوزير أبا عبد الله سأل أبا حيان فى الكتاب عن أبى سليمان هذا ، فذكر له أوصافه ، وفيها ما هو عيب لأبى سليمان كقوله : إنه يجتمع مع قوم للشراب ، ويذكر بعضهم الوزير بالسوء ، فلو كان أبو حيان ألفه لأبى سليمان لكان بعيداً كل البعد أن يذكر هذا الحديث .

ودليل رابع : وهو أن أبا حيان ينقل فى كتابه هذا عن أبى سليمان ، ويذكر آراءه ، وينقل بعض رسائله إلى الوزير ، ولو كان يؤلف الكتاب لأبى سليمان لاستغنى عن ذكر ما يعرفه أبو سليمان عن نفسه من أقواله ورسائله ، ولكان أبو حيان فى ذلك كمن ينقل إلى البئر ماءه ، وإلى الكنز ذهبه ، وهذا غير مألوف ولا مستساغ .

لهذا كله نرجح خطأ القفطى فيما ذهب إليه من أنه ألفه لأبى سليمان المنطقى .

كما نرجح خطأه فى الشق الثانى ، وهو أن أبا حيان دوّن فيه ما كان يدور بينه وبين أبى الفضل عبد الله بن العارض الشيرازى وزير صمصام الدولة .

ذلك لأن النسخة التى بين أيدينا يذكر فيها أبو حيان أنه دوّن فيه ما دار بينه وبين أبى عبد الله العارض لا أبى الفضل عبد الله بن العارض . وقد راجعنا كتب التاريخ التى بين أيدينا وأحصينا فيها من تولى الوزارة لصمصام الدولة ، فلم نجد من بينهم أبا الفضل عبد الله بن العارض الشيرازى الذى ذكره القفطى

وكما تقول دائرة المعارف الإسلامية فى مادة أبى حيان تبعا له .

نعم رأينا من يسمى أبا الفضل الشيرازى ، وكان يعيش فى هذا العصر ولكن اسمه أبو الفضل محمد بن عبد الله بن المرزبان الشيرازى لا أبو الفضل عبد الله الشيرازى كما يقول القفطى . وكان هذا كاتباً لا وزيراً ، وكان صديقاً لأبى على الحسن التنوخى ، ونقل عنه كثيراً فى كتابه « نشوار المحاضرة » ولقبه الكاتب لا الوزير . والذى ألف له الإمتاع والمؤانسة وزير لا كاتب .

يضاف إلى ذلك ما ذكرنا قبل من البراهين .

فالكتاب — فى رأينا — كتب لأبى الوفاء المهندس لا أبى سليمان المنطقى ودون فيه ما دار فى مجلس ابن سعدان لا أبى الفضل الشيرازى .

* * *

وصف الكتاب : قال القفطى فى وصفه : « وهو كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة فى فنون العلم ، فإنه خاض كل بحر ، وغاص كل لجة ، وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو : ابتدأ أبو حيان كتابه صوفيا وتوسطه محدثا ، وختمه سائلا ملحفاً[1] » .

قسم أبو حيان كتابه إلى ليال ، فكان يدون فى كل ليلة ما دار فيها بينه وبين الوزير على طريقة قال لى وسألنى وقلت له وأجبته . وكان الذى يقترح الموضوع دائماً هو الوزير . وأبو حيان يجيب عما اقترح ، وكان الوزير يقترح أولا موضوعا حسبما اتفق وينتظر الإجابة ؛ فإذا أجاب أبو حيان أثارت إجابته أفكاراً ومسائل عند الوزير فيستطرد إليها ويسأله عنها ، فقد يسأله سؤالا يأتى

(١) أخبار الحكماء ٢٨٣ .

فى أثناء الإجابة عنه ذكر لابن عباد أو ابن العميد أو أبى سليمان المنطقى ، فيسأله الوزير عنهم وعن رأيه فيهم ، وهكذا ، يستطرد من باب لباب ، حتى إذا انتهى المجلس كان الوزير يسأله غالباً أن يأتيه بطرفة من الطرائف يسميها غالبا : « ملحة الوداع » فيقول الوزير — مثلا — : إن الليل قد دنا من فجره ، هات ملحة الوداع . وهذه الملحة تكون — عادة — نادرة لطيفة أو أبياتا رقيقة ، وأحيانا يقترح الوزير أن تكون ملحة الوداع شعراً بدويا يشم منه رائحة الشيح والقيصوم وهكذا .

وأحيانا يكلفه الوزير أن يتم له المسألة المعروضة فى رسالة ؛ فقد سأله مرة عن المصادر التى تجىء على وزن تفعال ، فأجابه أبو حيان عن بعضها ، ثم طلب منه الوزير أن يجمع له ما جاء فى اللغة منها .

وأحيانا يتخذ الكلام شكل حوار . فأبو حيان — مثلا — يروى عن ديوجانيس أنه سئل : متى تطيب الدنيا ؟ . فقال : « إذا تفلسف ملوكها ، وملك فلاسفتها » ؛ فلم يرض الوزير عن هذا ، وقال : إن الفلسفة لا تصح إلا لمن رفض الدنيا وفرّغ نفسه للدار الآخرة ؛ فكيف يكون الملك رافضاً للدنيا وقالياً لها ، وهو محتاج إلى سياسة أهلها ، والقيام عليها باجتلاب مصالحها ونفى مفاسدها ! — وأطال فى ذلك — وفى كثير من الأحيان يعلق الوزير على إجابة أبى حيان بالاستحسان أو الاستهجان مع ذكر أسباب ذلك .

وأحيانا يطلب إليه الوزير أن يحضّر له رسالة فى موضوع ، ثم يتلوها عليه فى جلسة مقبلة كما فعل مرة ، إذ كلفه أن يكتب له فى المجون والملح ، ففعل أبو حيان وقرأها عليه فى مجلس . قال أبو حيان : « فلما قرأتها على الوزير قال : ما علمت أن مثل هذا الحجم يحوى هذه الوصايا والملح » .

وآونة يثير الوزير مسائل أشكلت عليه فى اللغة والفلسفة والاجتماع ، يعرضها على أبى حيان ويطلب منه الجواب فيفعل .

ويحدث أحياناً أن الوزير يدفع لأبى حيان برقعة فيها أسئلة يطلب إليه أن يفكر فى الإجابة عنها ، ويتصل بغيره من العلماء ليأخذ رأيهم فيها ؛ كما حدث مرة أنه دفع إليه رقعة بخطه فيها مطالب ، وقال : باحث عنها أبا سليمان وأبا الخير ، ومن تعلم أن فى محاوَرته فائدة . وكان فى الرقعة أسئلة منها عن الروح وصفته ومنفعته ، وما المانع أن تكون النفس جسما أو عرضاً أو هباء ؛ وهل تبقى ؟ وإن كانت تبقى فهل هى تعلم ما كان الإنسان فيه هٰهنا الخ . ويقول الوزير فى آخر هذه الرقعة : « إن هذا وما أشبهه شاغل لقلبى وجاثم فى صدرى ، ومعترض بين نفسى وفكرى ، وما أحب أن أبوح به لكل أحد » ؛ ويأمره بأن يكتم خطه فإن أراد أن يعرض هذه المسائل مكتوبة على أبى سليمان فلينسخها بخطه هو . ثم سأل أبو حيان أبا سليمان وذكر إجابته عنها ونقلها إلى الوزير ، وعلى هذا النمط يجرى تأليف الكتاب .

وموضوعات الكتاب متنوعة تنوعا ظريفاً لا تخضع لترتيب ولا تبويب ، إنما تخضع لخطرات العقل وطيران الخيال وشجون الحديث . حتى لنجد فى الكتاب مسائل من كل علم وفن ؛ فأدب وفلسفة وحيوان ومجون وأخلاق وطبيعة وبلاغة وتفسير وحديث وغناء ولغة وسياسة وتحليل شخصيات لفلاسفة العصر وأدبائه وعلمائه وتصوير للعادات وأحاديث المجالس ، وغير ذلك مما يطول شرحه .

* * *

فلما أراد أبو حيان أن يدوّن لأبى الوفاء ما دار بينه وبين الوزير زاد فيه ونمق الحديث . وكان يدوّن جزءاً ويرسله إلى أبى الوفاء ويتبعه بجزء آخر وهكذا ...

كما أن فيه فوائد كثيرة عن الحياة السياسية للدولة ، فهو يصف كثيراً حالة الشعب فى عصره وموقفهم من الأمراء والملوك ، وهيجانهم واضطرابهم وأسباب ذلك .

وكما يعرض أحياناً للحياة الاجتماعيــة الشعبية فيذكر عدد القينات فى الـكرخ فيقول : « ولقد أحصينا فى ســنة ٣٦٠ : ٤٦٠ جارية من القينات ومائة وعشرين من الحرائر ، وخمسة وتسعين من الصبيان الذين يجمعون بين الحذق والحسن . هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزته ورقبائه ، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهرون بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط أو ثمل فى حال أو خلع العذار فى هوى » . وأطيل جدا لو وصفت ما فى الـكتاب من فوائد .

ثم إن أسلوبه فى تقسيمه إلى ليال ، وذكره ما دار فى كل ليلة على سبيل الحديث والحوار ، يجعله لذيذاً شـيقاً ، أو على حد تعبيره هو — ممتعاً مؤنساً — فهو أشبه شىء بألف ليلة وليلة ، ولـكنها ليست ليالى للهو والطرب وكيد النساء ولعب الغرام ، إنما هى ليال للفلاسفة والمفكرين والأدباء ، إذ يتعرض فيه لأهم مشاكل الفلاسفة ، كالبحث فى الروح والعقل والقضاء والقدر وما إلى ذلك ، كما يتعرض لمشاكل البلغاء كالليلة البديعة التى جرى فيهـا الحديث عن النثر والنظم والمفاضلة بينهما ، ومزايا كل ونقصه وهكذا . فإن كان ألف ليلة وليلة يصور أبدع تصوير الحياة الشعبية فى ملاهيها وفتنها وعشقها ، فـكتاب الإمتاع والمؤانسة يصور حيـاة الأرستقراطيين أرستقراطية عقلية ؛ كيف يبحثون ، وفيم يفكرون ، وكلاهما فى شكل قصصى مقسم إلى ليال ، وإن كان حظ الخيال فى الإمتاع والمؤانسة أقل من حظه فى ألف ليلة وليلة .

وأسلوب أبى حيان فى الكتاب أسلوب أدبى راق كعهدنا فى كل كتابته ؛ يحب الازدواج ويطيل فى البيان ، ويحتذى حذو الجاحظ فى الإطناب والإطالة فى تصوير الفكرة ، وتوليد المعانى منها حتى لا يدع لقائل بعده قولا ؛ ولكن أغمضَ أسلوبه فى هذا الكتاب تعرضه كثيراً لمسائل فلسفية عميقة قد عزّت على البيان ، ودقت عن الإيضاح ، فإذا هو خرج عن هذه الموضوعات الدقيقة إلى موضوعات أدبية : كوصف لفقره وبؤسه ، أو وصف للكرم وفوائده ، أو وصف للسان والبيان ؛ جرى قلمه وسال سيله وأجاد وأبدع .

نُسخ الكتاب : للكتاب — فيما أعلم — نسختان ، لا أعلم لهما فى مكاتب العالم ثالثة .

فأما النسخة الأولى فكاملة ، وهى تقع فى خمسة أقسام .

وقد جاء فى طرة الجزء الثانى ما نصه : « رسم لخزانة السلطان الأعظم ، مالك رقاب الأمم ، مولى ملوك العرب والعجم ، باسط الأمن والأمان ، ناشر العدل والإحسان ، أبى المفاخر فخر الدنيا والدين سليمان بن غازى « محمد الأيوبى » خلد الله تعالى مملكته وسلطانه ، وأعلى فى الخافقين عزه وبرهانه » .

فالجزء الثانى كتب للعادل سليمان بن غازى الأيوبى .

* * *

وكان العادل سليمان أديبا شاعرا ، جاء فى (كشف الظنون) ذكر كتاب اسمه « الدر الثمين فى شعر الثلاثة السلاطين » وهم : « العادل سليمان الأيوبى وولده الأشرف أحمد وولده الكامل خليل » . فسليمان هذا هو صاحب الخزانة المكتوب هذا الجزء برسمها .

وجاء فى آخر هذا الجزء : « تمت الجزء الثانى من كتاب المؤانسة والإمتاع بحول الله وحسن توفيقه فى شوال سنة خمسة عشر وثمانمائة على يد أضعف العباد شرف بن أميره فى حصن المحروسة حماها الله تعالى عن الآفات والعاهات آمين يا رب العالمين » .

وخط الجزء الثانى (وهو فى ثلاثة مجلدات) مخالف لخط الجزء الأول (وهو فى مجلدين) ، وإن كان الخطان قريبى الشبه بعضهما ببعض ، والجزء الأول غير مضبوط ، والثانى مضبوط بالضبط الكامل . وكلا الجزئين مملوء بالأخطاء الخطيرة بالزيادة والنقص والتحريف ، ويظهر أن الكاتبين من الخطاطين الذين يجيدون الخط ولا يحسنون الفهم . وكاتب الجزء الثانى يغلب على الظن أنه تركى لا يحسن العربية فهو يقول : « تمت الكتاب » « لا تم الكتاب » . ويقول « فى سنة خمسة عشر وثمانمائة » بدل « خمس عشرة » وهذه — مع الأسف — هى وحدها النسخة التامة .

وهذه النسخة أخذها المرحوم أحمد زكى باشا بالفتوغرافيا من مكتبة طوب قبو سراى لما اطلع على الكتاب وعرف قيمته . وقد أحضر النسخة الفوتوغرافية معه إلى القاهرة ، واحتفظ بها فى مكتبته الخاصة ؛ وقد قرأ الكتاب ، ووضع فى الصفحة الأولى من كل جزء فهرسا بعدد الليالى وبعض الموضوعات ، كما وضع أسماء الأعلام الواردة فى الكتاب أمام كل صفحة ، مما يدل على أنه كان يريد نشره ، ويريد ترجمة الأعلام التى وردت فيه ، ولكن لم يتعرض لتصحيح شىء مما فيه من أغلاط .

وقد توفى — رحمه الله — وهى فى مكتبته الخاصة ، فاشتراها السيد حمدى السفرجلانى الدمشقى ، وباعها لدار الكتب المصرية .

والنسخة الثانية نسخة فوتوغرافية أخذت من أصل فى ميلانو ، وليست كاملة ، وإنما هى قطع ثلاث : قطعتان من الجزء الثانى وقطعة من الجزء الثالث وهى مشوشة غير مرتبة ، وقد استحضرها زكى باشا أيضا ، واحتفظ بها لنفسه ، ثم بيعت لدار الكتب .

ولم يذكر فى أية قطعة من القطع تاريخ نسخها ، وخطها واضح وجميل أيضا ومضبوطة . ولكنها فى جملتها لا تقل فى الأخطاء عن سابقتها .

وقد كان فى نية السيد حمدى السفرجلانى نشر المخطوطة قبل بيعها لدار الكتب ، فاستنسخ نسخة منها ، وقرأها مع بعض أفاضل دمشق ، منهم الدكتور حسنى سبح والسيد رشدى الحكيم وخليل مردم بك ؛ واستظهروا بعض تصحيحات لما وجدوه فى هذه النسخة من تحريف .

وبقيت بعد ذلك مملوءة بالأغلاط كثيرة الجمل والألفاظ التى تشبه الألغاز حتى لا يخلو سطر منها من وقفات تستدعى الجهد الشديد فى تصحيحها . فعُرض على لجنة التأليف نشره ، فوافقت على ذلك ، وعهدت إلى كاتب هذه السطور والأستاذ أحمد الزين بتصحيحه ؛ وقد بذلنا معا جهداً كبيرا فى تصحيح المحرّف من ألفاظه ، وتفسير غريبه ، وشرح المشكل من عباراته ، وتكميل الناقص من جمله ، وضبط الملتبس من كلماته ، والتعريف بكثير ممن ورد ذكرهم فيه من العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة ، وهذا هو جهدنا نقدّمه للقراء .

ومع هذا فربما نكون قد أخطأنا الصواب أو أغفلنا بعض المحرف ، وقد أثبتنا ألفاظه المحرفة فى حواشى صفحاته . ويلاحظ أننا فى أكثر الأحيان نثبت اللفظ المحرف وحده غير منبهين على أنه محرّف اتكالا على فهم القارئ ، وفى بعض الأحيان ننبه على أنه تحريف وأن صوابه ما أثبتنا ؛ كما يلاحظ أننا

قسمنا كل ليلة من ليالى هذا الجزء إلى موضوعات ، مثبتين فى أول كل موضوع رقما يدلّ عليه .

فنحن ننشر الجزء الأول من الكتاب اعتمادا على نسخة طوب قبو سراى وحدها ، حتى إذا وصلنا إلى الجزء الثانى أمكننا الانتفاع بنسخة ميلانو .

ولعلنا بهذا النشر نحسن إلى أبى حيان بالتعريف بقيمته ، والإشادة بذكره ، بعد أن أساء إليه الزمان ، فأماته فى حياته ، وأخمد اسمه بعد وفاته ؛ كما نحسن إلى عصره فنلقى عليه بعض الضوء ، وقد اكتنفه الظلام ، وعفت على آثاره الأيام ، والسلام .

أحمد أمين